

يهودا شنهاف - شهرباني*

سلمان ناطور رحل عنا

من دون إنذار مُسبق

كيف

يمكن الكتابة عن سلمان ناطور - الأديب والكاتب المسرحي والمترجم والمرشد الدليل - الذي اختطفه القدر وهو في ذروة العطاء في شباط / فبراير ٢٠١٦؟ وبشأن ماذا يمكن الكتابة: الأعمال النثرية أم الترجمات أم الفكر أم النصوص المسرحية؟ أم عن طاقته السياسية والفكرية؟ أم عن إنسانيته المثيرة ومحبه للإنسان والصدقة والولاء؟ يتبادر إلى ذهني العديد من الأمور حين أستحضره، ويضيق المجال للتوقف عندها كلها. أشعر بأن هذه الأمور جميعاً تحتاج إلى صوغ وتفكير بعد فترة من الزمن ليتسنى لنا أولاً هضم هذا الفقدان. لقد تشرفتُ بالتعرف إلى سلمان ناطور معرفة تعمقت أكثر فأكثر بعد أن ترجمتُ روايتين له إلى العبرية ("هي، أنا والخريف...")؛ و"ما نسينا، أو سيرة الشيخ المشفق الوجه").**

* أستاذ علم الاجتماع في جامعة تل أبيب، وزميل باحث في معهد فان لير في القدس.

** ثمة رواية أخرى بعنوان: "سفر على سفر: أنا اليهودي الأخير"، وما زال يوناثان مندل يقوم بترجمتها، وستصدر ضمن سلسلة "مكتوب" للترجمات من العربية إلى العبرية.

إن العمل مع أديب معاصر ذي معرفة عميقة باللغة العبرية يُعتبر تحدياً. فخلافاً لظروف ترجمات أخرى، يتنفس الأديب في مثل هذه الحالة في عنق المترجم، ويقوم بتدقيق صارم للنص المترجم. أحياناً كنتُ أشعر بأن سلمان يحدّق في شاشة حاسوبي حين كنتُ أعمل على ترجمة نصوصه. إنه بلا شك تحدّي يثير أسئلة مهمة عن العديد من المسائل، مثل الولاء والخيانة وموازين القوى. وجدنا أنفسنا أكثر من مرة خلال الترجمة نتناقش، بل حتى نتخاصم بشأن الدلالات والصيغ. غير أن هذا النقاش لا يعبر عن التوتر الطبيعي بين الكاتب والمترجم، أو التوتر الطبيعي القائم بين لغتين مختلفتين (مثل العبرية والإنجليزية)، أو التوتر السياسي القائم بين اليهودي والعربي فحسب، بل إن هذا النقاش في جوهره ما هو أيضاً إلاّ تفاوض سياسي على علاقات القوة بين اللغتين العربية والعبرية، وعلى نقطة اللقاء الملوثة التي تجمع بينهما، وعلى العلاقات الكولونيالية القائمة بينهما، والدلالات اللاهوتية التي يحملها كل منهما. أمّا بشأن مكامن الدلالات المشحونة والمواقع غير القابلة للترجمة، أعني تلك الصيغ الدلالية

منهما لتسليط الضوء على أعمال سلمان وشخصيته المركبة الغنية بالتناقضات. تتناول الافتتاحيتان الموت، لكنهما تصفانه كولادة جديدة. وفي الحقيقة، فقد استحضرت هاتان الافتتاحيتان في مخيلتي مشهداً، كأني في حلم رهيب: أقف إلى جانبه في لحظات نزاعه الأخير وهو على فراش الموت. حفظتُ هاتين الافتتاحيتين عن ظهر قلب. لقد تميّز سلمان بكونه أديب الافتتاحيات لا أديب النهايات. تميّزت جميع أعماله بطيف واسع من الافتتاحيات، واختتمت كلها بطيف آخر من النهايات التي تبدو كأنها افتتاحيات جديدة.

الافتتاحية الأولى

وجدتُ أن الأنسب استحضار المشهد التالي، المثير للقشعريرة، وهو مشهد يصف موت أبو عمّار، كأننا أمام عملية وصف لموت سلمان نفسه؛ عملية مستقاة من منهجية "القص واللصق" (cut and paste) المعتمدة في برنامج وورد (Word). إنه مشهد من رواية لم ينته منها، وحُفظت في ملف "غير نهائي" تحمل عنوان "مات من دون إنذار مُسبق":

لم يحرك رأسه، كانت يده دافئة ثم صارت تبرد...
مات دون أن يقول كلمة واحدة قبل أن يفارق.
لم يقل... ترك كل شيء وذهب. لم يودّع، لم يسأل، لم يقل شيئاً.
توقف قلبه فجأة عن الخفقان، دون أية إشارة مسبقة. فاجأه بدون إنذار.. خانه قلبه.
مات أبو عمّار (شاكر سعد مراد توفيق المالكي) موتاً طبيعياً.

التي لا يمكن ترجمتها، فكنا نتوصل في نهاية المطاف إلى توفيق بين اللغتين، وبتعابير فولتير بنيامين، فإن هذا المشروع الطموح يحمل في جنباته أبعاداً أقرب ما تكون إلى النزعة المسيحانية / الخلاصية. لكننا بطبيعة الحال، تعاملنا أيضاً مع الأمور التقنية فيما يتعلق بالأمور الصغيرة. فقد خُصنا في جمل مثل "صباح عادي جداً" بالعربية، الذي يحمل دلالات قريبة من "بوكر شغرتي ميؤد"، أو "بوكر شغرتي" بالعبرية، ولجأنا في أكثر من مرة إلى صديقنا حنان حفر، محرر رواية "هي، أنا والخريف...". لا يهم ماذا قررنا أخيراً، لكن يبقى أن هذه النقاشات والمفاوضات أكدت أكثر فأكثر الفجوات في طور سعيها للجمع بين اللغتين. تعرّفنا إلى الاختلاف بين المطر بالعربية وبين "غيشم" و"مطر" بالعبرية؛ بين معركة وبين "معرخاه". كما أشرنا إلى المناطق التي يمكن فيها اعتماد العبرية أو العبرنة. لقد حوّلت هذه النقاشات والمفاوضات عملية الترجمة إلى عملية متعددة الاتجاه، وأفضت إلى الابتعاد عن الفصل الثنائي التنافري بين اللغتين. وفي الوقت ذاته، حين كنا نظهر معاً في مناسبات أدبية، كنا نتحدث عن الترجمة بصفاتها أنموذجاً لحيز سيادي مشترك لمجتمع ثنائي ومتعدد القومية. فبدلاً من الحيز السيادي الإقصائي والمتلاعب والعنيف (الذي يدور حول الأرض والسكان واللغة) نجد أنموذجاً لحيز مشترك ومتبادل ينتقل من يد إلى أخرى مثل الشعلة المنتقلة من يد لاعب إلى آخر.

هذه هي القضايا التي كنت أرغب في الإبحار فيها لولا ضيق المجال ومرور وقت قصير فقط منذ الرحيل. وعوضاً عن ذلك، سأكتفي بكلمتي رثاء قصيرتين، وبدلاً من النص الرثائي، اخترت افتتاحيتين لسلمان نفسه، إذ لم أنجح في اختيار واحدة

مات موتاً طبيعياً مفاجئاً دون
أي إنذار مُسبق.

لم تكن إشارات لذلك، ولم يتصل به
أحد (ملاك مثلاً) ليقول له: ستموت
غداً أو بعد غد.

خطّط لنفسه في ذلك اليوم أن
يخرج إلى المدينة ويشتري عباءة
جديدة وقبعة بيضاء، ويُجري فحصاً
لنظره الذي لم يعد يُسعفه في قراءة
الكتب القديمة.

ليس في كل هذا أية غرابة، أو
خروج عن أصول الموت في قريته.
وأكثر شيء عادي في ذلك الصباح
هو أن أبا عمّار يقرأ الكتب القديمة،
الكتب العربية القديمة. كان قارئاً
مبدعاً لأبي العلاء المعري ومحبي
الدين ابن عربي، وما نقله العرب عن
أرسطو وأفلاطون.

الناس هناك يموتون عادة موتاً
طبيعياً، يمرضون ويموتون أو
يموتون دون أن يمرضوا، بالسكتة
القلبية، مثلاً، أو الجلطة التي منهم
مَن يعتبرها مرضاً، ومنهم مَن
يعتبرها عطلاً غير متوقع، حدثاً
عرضياً لم يحسب له أحد حساباً.
فجأة يتوقف القلب عن الخفقان،
فيتوقف جريان الدم إلى الدماغ،
فتتوقف كل أعضاء الجسم عن
الحركة، فتتبدد طاقة الحياة في
الجسد، فيبرد ثم يخشُب، أي يصبح
مثل الخشب الذي لا يُنشر بمنشار
سواه.

في القرية قد يموت الناس في
حادث، أي حادث قاتل، حادث طرق
أو سقوط عن مرتفع، أو بالتسمّم.

وهناك مَن يضرب رأسه في الحائط
فيموت. قبل انتشار السيارات كان
الحادث يعني الموت بسبب الوقوع
عن حصان أو لبيط حمار أو بغل أو
سقوطاً عن منحدر إلى وادٍ سحيق في
طريق وعريّ.

كثير من الناس ماتوا لأن أفعى
سامة لدغتهم.

هكذا كان الفقيد أبو عمّار
يشرح الموت المفاجئ كما تعلّمه
من طبيب سنوسي أحضره من
مدينة إسكاعالم، المعروفة بأطبائها
الماهرين، لمتابعة صحة مَن نجا في
حينه من مرض الكوليرا، أو الريح
الأصفر كما يسمّيه الفلاحون.

"الريح الأصفر؟ الله لا يعيدها!
كانوا يدفنون الناس وهي عايشة
قبل ما تلفظ النفس الأخير. كان
الزلمة يحفر قبره بإيده."

الناس في كفر التين لا يؤمنون
بأن الأعمار بيد الله. لا يؤمنون!
لكن، لنقل، إنصافاً للحقيقة:
معظمهم لا يؤمنون، وإنصافاً آخر،
الأكثرية المطلقة. ستجد نفراً يسلم
تماماً بأن الله يُحيي مَن يشاء،
ويُميت مَن يشاء، وهو على كل شيء
قدير، ولا يُحمد على مكروه سواه،
والراحل لم يكن واحداً منهم، ولنقل
ذلك في البداية كي لا يلتبس الأمر
على مؤمن أو على محرّر من الإيمان،
ولن يؤثر ذلك بشيء على مراسيم
جنائزته أو طقوس موته أو حزن
الناس عليه، فالميلاد والممات في
هذه القرية ليسا مدعاة للحزن ولا
للفرح.

إلا في مخيلة ترفض قبول الواقع
وتبحث عن بديل. هذه الحكاية لا
تتعرض لأية عملية خلق مثقال ذرة؛
كذلك أنبّه إلى أن الأسماء الواردة
ليست أسماء المشاهير الذين نعرفهم
ولا ترمز لهم، فأبو عمّار ليس ياسر
عرفات، وأبو جهاد ليس خليل الوزير.
وكريستين ليست ابنة مدينة حيفا
قبل النكبة، وهي أول امرأة ناضلت
من أجل تحرّر فلسطين والنساء.
ملاحظة أخرى أردنا هنا أن نلفت
النظر كي لا تلتبس الحكاية على أحد،
فيذهب في التأويل إلى ما قد يسيء
الفهم، أو يُساء فهمه، ويفقد متعة
الحكاية التي إذا اعتبرت واقعية فلن
تصدّق بعد قراءتها إلا إنها خيالية،
وإن اعتبرت مسبقاً خيالية فلن
تصدّق بعد قراءتها إلا إنها واقعية.
مجرد حكاية.

لقد وردت عبارات مماثلة في روايته "هي، أنا
والخريف..." التي تتناول قصة امرأة عجوز
تقيم في إحدى القرى الفلسطينية. يتوقف
عند تفاصيل الحياة الدقيقة: يستغرق في
وصف بيتها، وكيف صنعت كأسين من
الشاي، وبأي ملعقة حرّكت السكر، كما
توقف طويلاً عند صراعاتها مع ابن عمها
رئيس المجلس، وهدم بيتها، وإنشاء موقف
حديث للسيارات على أنقاضه. ولا ينسى
أن يذكر كيف أن بطلة الرواية، التي عمرها
بعمر دولة إسرائيل، لا تحمل بطاقة هوية،
وأنها على الرغم من إتقانها اللغة العربية
الأدبية، فإنها تتحدث بلهجة غريبة وغير
مفهومة، الأمر الذي يثير سحنات التهكم.
هذه التفاصيل تتطابق بصورة مجازية
مع المجتمع الفلسطيني في إسرائيل. وحين

في هذه القرية يقولون لك معرّين:
لكل بداية نهاية، وأقبل النهاية كما
تقبل البداية. مُت فرحاً وإلاً وُلدت
بائساً!
طبعاً! هذا يُصدّق إن أمنت بأن
الإنسان يموت، ثم يولد من جديد،
ويموت ويولد إلى قيام الساعة أو
فناء كل شيء، يعني أن الموت تعقبه
حياة، وقد تكون سعيدة أو تعيسة أو
لا معنى لها. وأتّمس حياة هي تلك
التي لا معنى لها.
في القرية أناس يؤمنون أن
الإنسان يموت ويولد من جديد.
إيمانهم عميق لدرجة أنهم لا يعرفون
في تلك اللحظة إن كان عليهم أن
يحزنوا على غياب، أو يفرحوا على
حضور.

يمكن أن ينشد القارئ إلى تحليل الدلالات
السياسية لهذا النص، إذ لم يكن سلمان أديباً
فقط، بل كان شخصاً سياسياً أيضاً. فعلى
سبيل المثال، ما هي دلالة العودة التي يشير
إليها الكاتب هنا؟ هل المقصود هنا "أبو
عمّار" ذلك القائد الفلسطيني الراحل؟ هل
سنحظى بانبعاث جديد للحياة بعد الموت؟
لكن سلمان يحذّرنا من الخوض في مقارنات
خطأ وشعبوية بين الواقع والخيال. بهذه
الكلمات بدأ روايته هذه:

مجرد حكاية.

حكاية متخيّلة.

أي تطابق مع أي واقع - كما
يقولون - هو محض مصادفة.

المكان والناس والملموس
والأجساد كلها متخيّلة. لا تمتّ إلى
واقع بصلة. لم تحدث ولن تحدث

خلفك رواية لم تكتمل بعد تحمل عنوان "مات من دون إنذار مُسبق". إنك تروي لنا قصة جثة لا يمكن دفنها بسبب تساقط الثلوج التي لم تتوقف منذ رحيل صاحبها. رحلت يا عزيزنا ولا يزال الثلج يتساقط. إنه الثلج نفسه الذي لا يتيح لنا أن ندفنك كي تبقى بيننا يوماً بعد يوم، ونحن بدورنا نحمل التصور الذي وضعت أنت معالمه أمامنا.

الافتتاحية الثانية

بين أيدينا يتهاوى الشيخ مشقّق الوجه.. تسقط عكازه على الأرض، فيخترق طرقها آذاننا، كأن شيئاً ما توقف عن الحركة أو كأن شيئاً ما يؤذن بميلاد حركة جديدة من البدء. كنا نعرف أن شيخنا لن يعيش إلى ما لا نهاية، كانت تنتظره هذه الساعة، ولم يكن ينتظرها إلا حين أشرفت على القدم، فترك أهله في دُابة، وجاء إلى يافا يتنقل بين بيوتها، ويحملنا ما تحمله الذاكرة، لننقلها نحن، أو لكي لا نحمل نحن مثل ما حمله هو هذه السنين الطويلة. استرخى جسده على أيدينا فوضعناه على سرير بلا وسادة وبلا غطاء.. كان قلبه ما زال ينبض.. والذبول الذي سيطر على جفنيه لم يمنعه من أن ينظر إلينا، كأنه يريد أن يقول شيئاً..

بهذه العبارات المؤثرة يرافق الأديب والمسرحي والمفكر سلمان ناطور الشيخ مشقّق الوجه في رحلته الأخيرة. وكأنّ القدر يسخر منا، فقد وجد سلمان موته تماماً مثل موت الشيخ الذي ختم حياته بعد أن أتمّ قصته "للأجيال القادمة". "ترقبه الموت"،

توجهتُ إليه بالسؤال عن ذلك، رفض التفسير المجازي، وقال إنه ليس وصفاً مجازياً لفلسطين، وإنما هو وصف عالمي / كوني. وربما بسبب ذلك انفعل كثيراً بعد عودته من رحلة إلى العالم العربي روى لنا في إثرها أوجه التشابه بين النساء في جميع القرى العربية، في الأردن ومصر والخليل والمغرب. كذا كانت السياسة في عيني سلمان. هي أمر عالمي - كوني، وليس محلياً خاصاً. إنسانية غير عنيفة. رقيقة غير شعبية. وكذلك كان أدبه.

إن أقرب الفقرات إلى نفسي هي الفقرة الافتتاحية لروايته "هي، أنا والخريف..." التالية:

صباح عادي جداً.
العادي هناك هو أن تشرق الشمس من خلف الجبل الذي يحجب خيوطها عن القرية لدقائق معدودة، وشيئاً فشيئاً يكسر هدير سيارات المبكرين إلى العمل سكينه الصباح، فيطغى على زقزقة العصفير وصياح ديك بقي يتيماً في حارة فقدت دجاجاتها عاماً بعد عام، وفقد هو (الديك) نظام صياحه. فمرة يصيح فجراً، ومرة بعد شروق الشمس أو العصر، أو منتصف الليل، أو لا يُسمع صوته إن كان مكتئباً أسوة بكل أهل القرية.

كُتبت جُلّ الرواية بهذا الأسلوب: الخوض في التفاصيل الدقيقة جداً. إنه أسلوب تشيخوفي لتوصيف الواقع اليومي للقرية الفلسطينية في العصر الحالي، مثل أوجه الوحشة والموت والبلبل، وحقيقة أن صياح الديك غير مسموع. سلماننا الغالي! لقد رحلت عنا وتركت

صورة الشيخ والمسيرة المثيرة المنسوبة إليه، وهنا يُقحم سلمان نفسه في دهاليز هذا القسم، فيتحدث بلسان الراوي. ومثلما هي الحال مع الشيخ، فإن الراوي يعتمد الصور الموجزة، ويصف لنا موطن شعره وروايته.

تستند رواية الشيخ مشقّق الوجه إلى

شهادات استقّاه سلمان من مهجّرين

فلسطينيين في مطلع الثمانينيات، وإلى

مقابلات معمقة أجراها معهم. فسلمان منذ

نعومة أظافره، التقى بالمهجّرين في دالية

الكرمل، والذين تمثّلوا بدايةً في أسرة من

عائلة أبو الهيجاء نزحت عن بيتها في قرية

عين حوض التي احتلّت وتحولت فيما بعد

إلى بلدة "عين هود"، بلدة الفنانين اليهود.

لم يُسمح لسكان البلدة بالعودة إلى بيوتهم

بعد أن خمد أجيح النار، وتوقف صرير

حديد المدافع، فاستقبلت عائلة سلمان، بين

سنتي ١٩٤٨ و١٩٥٦، الشيخ أبو حلمي

وأسرته التي نزحت عن بلدتها عين حوض.

زحف سلمان الصغير إلى غرفة الضيوف

مسترقاً النظر إلى الشيخين، جدّه وأبو حلمي،

والاستماع إلى حديثهما عن أحداث البلدة في

تلك الفترة. وحين كبر سلمان استمع مجدداً

إلى قصص من أفواه شيوخ آخرين، فانتقل

على مدار عامين من مكان إلى آخر حيث

التقى عشرات الأشخاص الذين تحولوا إلى

نازحين ومهجّرين في وطنهم. في البداية،

رفض هؤلاء الحديث، فعلى الرغم من انتهاء

فترة الحكم العسكري، فإنّ الخوف كان لا

يزال يعيش في أفئدتهم، لكنهم بعد أن بدأوا

بالحديث، لم يعد في المكان التوقف أمام

تدفّق القصص. روى هؤلاء قصصهم بألم

شديد لا يخلو من حسّ فكاخي.

إنّ شهادات هؤلاء الشيوخ وكبار السن

التي استنطق سلمان الشيخ مشقّق الوجه

عنها، تشكّل كلها وثيقة لم نعرفها عن

النكبة. وبعد الانتهاء من ترجمة الرواية،

كتب عن الشيخ، و"بين أيدينا يتهاوى الشيخ مشقّق الوجه". لقد رحل عنا سلمان وأخذ معه بعض الخير والحكمة التي كانت كامنة فيه، وهو الذي أخذ على عاتقه تحدياً سيزيفياً يتمثل في تناول / معالجة الذاكرة.

كان "الشيخ مشقّق الوجه" قاصّاً شعبياً

لتاريخ فلسطين، وتمكّنه من التفصيلات

يفوق كل تصوّر. إنه مليء بالقصص

والحكايات المقدسة والمصطفة والمبتورة

والملتوية. ينفذ صبره أحياناً، ويتأجج

غضبه أحياناً أخرى. يقتضب في حديثه عن

فترة الأتراك، لكنه يسترسل في حديثه عن

حقبة الإنجليز، وبعدها يطيل الحديث عن

اليهود. وقته يوشك أن ينفذ، والموت يترقّبه

في آخر الطريق. انتهت رحلته حين انهار

على رمل شاطئ يافا، ولفظ أنفاسه قبل أن

يستكمل القصة.

استنطق سلمان الشيخ ليروي لنا قصص

النكبة، قصصاً تبعث الكآبة في النفوس،

تُروى أحياناً بعد وقت طويل على وقوعها،

وتُحكى أحياناً أخرى على شكل صور موجزة

كلمعان ضوئي يأتي هنيهة ويختفي. صور

منبعثة من الذاكرة، تتراكم لتشكّل جميعها

وثيقة كئيبة ومقلقة. تتسم الأوصاف

بالبرودة والازدحام. تنتقل من مشهد إلى

آخر من دون رابط. تُسرد أحياناً بصورة

غير منهجية، وبصورة واعية أحياناً أخرى.

قصة بعد أخرى. مأساة بعد أخرى. سلسلة

تنزاحمها الافتتاحيات والفصول المختزلة

البالغة القصر، والتي تتناول سرّاً محفوظاً

بأمانة هو الأكثر جلاءً في الخطاب السياسي.

لكن يبدو أنّ العلاقة التي تربط سلمان

ناطور بالشيخ مشقّق الوجه ليست مجرد

علاقة قرب وتشابه، بل إنّ سلمان يفرض

حضوره بصورة صريحة على النص الذي

يحقق مع الماضي والحاضر. إنّ القسم

الأول - الذاتي - للرواية هو الأساس لتشكيل

بالحيوية والقوة. أخبرنا سلمان أن الدافع وراء كتابته هذه الرواية لم يكن التوثيق فقط، بل مساعدة الأشخاص على التحرر من الخجل المعشعش في أفئدة الناجين. لم يخلج الناجون من الهزيمة المدوية فحسب، بل من مجرد أنهم نجوا أيضاً - بينما سقط البعض وتهجّر البعض الآخر.

تتميّز نظرة سلمان إلى الذاكرة بشيء من التركيب. وفيما يلي ما كتبه بهذا الشأن: "ألوم الذاكرة لأنها تخونني، وألومها لأنها ترفض أن تخونني، ولا أعرف كيف أتعامل معها، بكثير من الحب أم بحقد أعمى؟" انطلاقاً من هذه الثنائية المتلثمّة، يخبرنا أنه لا مناص له من الذاكرة: "تخونني الذاكرة وأفقدّها يوماً بعد يوم، وقد يأتي يوم أسود فأجد نفسي بلا ذاكرة، مجرد جسد يتحرك إلى لا مكان..."

عبر تناوله الذاكرة سعى سلمان للعثور على الأشخاص، لا على أحياز متجمدة في الذاكرة، فقد كان ملتزماً بالذاكرة الإنسانية كتلك التي تمثّلت في وجه الشيخ. اقتفى أعقاب الأزمنة وأوجاعها في تجاعيد وجه هذا الشيخ العجوز، تماماً كما هي الحال مع الدوائر البادية على مقطع من جذع شجرة الزيتون، والتي تروي تجاعيدها تاريخ فلسطين. يسلّط سلمان الضوء على ملامح الشيخ المميزة، بعضلات جفونه المنقبضة، وبأصابعه المتأرجحة وبأطراف سحنه المتغيرة، ويخبرنا: "وليس من قبيل التهريج أن يصبح أبو محمد خارطة تاريخ فلسطين. فأبو محمد كبقية أهل فلسطين"، وإذا ما رحل الشيخ واختفى فجأة، فإن فلسطين ستتحول إلى خريطة صماء.

نشر سلمان هذه الشهادات في مطلع الثمانينيات باللغة العربية، قبل نشر أبحاث "المؤرخين الجدد"، وأحد النقاشات التي ثارت بشأن مسألة التطهير العرقي في

سألت سلمان ما إذا كان مهتماً بأن أشير في الحواشي إلى توضيح أسماء الأمكنة وتدعيم الأحداث المذكورة بما ورد في الدراسات التاريخية، وباختصار أن أقوم باستعادة الجدول الزمني للأحداث بصورة منهجية، فرفض رفضاً باتاً، وقال لي بحزم: "إنه عمل أدبي لا كتاب تاريخ." واستطرد: "إن تاريخ المهزومين يدوّن الأدب لا التاريخ." واستشهد بمقولة لوالتر بنيامين تظهر في طرحة السادس لمفهوم التاريخ (في كتابه "طروحات بشأن مفهوم التاريخ")، وفحواها أن صوغ التاريخ من منظور المهزومين يعني صوغ الذاكرة في لحظة إرسالها إشارة الخطر، فهذه الإشارة تصف الذاكرة المأسوية للمهزومين. ولا يمكن الحكم على ذاكرة مأسوية استناداً إلى مفهوم التماسك الداخلي لعناصرها، أو التوقف عند تفصيل معين أو عند نظام الأشياء، لأنها (تلك الذاكرة) تتغذى في المجل على الإشارات السريعة، أي على أحداث متقطعة تظهر وتختفي سريعاً.

يستجمع سلمان جميع روايات وقصص هؤلاء الشيوخ ويستنطقها من فم الشيخ مشقّق الوجه، ولهذا، فإن أي محاولة للعثور على مكان الشيخ، وكل محاولة لرسم ملامح صورة وجهه المميز، أو لمتابعة أصوله الأسرية، سيؤولان بالضرورة إلى الفشل. فالشيخ يُعرّج من مكان إلى آخر، ومن زمن إلى آخر، ومن قصة إلى أخرى. يبدو أن "يده في الكل، ويد الكل فيه." مرة هو ابن البروة، ومرة أخرى هو ابن قرية خبيزة؛ صفورية؛ الرملة؛ حيفا؛ أو يافا. ينجح الراوي في الغوص في أعماق تفاصيل قصة معار وحداثه ومعلول وأم الزينات وعين غزال وجبع وإجزم وقرى عديدة أخرى، وبسبب تنوع محاور الزمان والمكان، وأطراف الأحداث والقصص، تتحول سيرة حياة الشيخ إلى عمل إبداعى مركّب ومفعم

وقد رفض الخدمة في الجيش ودفع ثمن ذلك بسجنه، غير أنه على الرغم من إصراره على النضال الفلسطيني، فإنه كان في نهاية المطاف درزياً. كان كثيرون من أصدقائه يهوداً، ولازمه في مرحلة معينة تعبير "اليهودي الأخير"، لكنه كان عربياً. صدرت قوته عن الهوامش، لكن ناطور لم يكن قومياً. رفض سلمان أن يتحول إلى أديب قومي يمثل الأمة، ولهذا لم يحظ بتسليط الأضواء عليه كما سلطت على الأدباء القوميين، بل إنه كتب ونشط ضد التيار. تأرجح بين المجموعات واللغات، وبين السياسي والأدبي، وهذا التنوع في تموضعاته، إلى جانب مواقفه الكونية، أفضى به إلى اعتياد الحياة بتوتر دائم لا يجد تفرغاً له. لا يمكن تجاهل المأسوية التي عاش بين ظهرانيها.

إن موت سلمان فاجعة شخصية عظيمة لي. كان بمثابة شقيق لي، وكان رفيقاً وحافظاً للأسرار وشريكاً في التوجه السياسي. لقد شجّعني على أن أعود إلى هويتي اليهودية - العربية، وأصرّ على التحدث معي بالعربية، فهي لغة أمانا كما اعتاد أن يقول لي، ونظر إليها بصفتها أساساً مشتركاً للتضامن. تحدثنا يومياً باللغة العربية على مدار الأعوام الخمسة الأخيرة. أضحكني كثيراً ومنحني القوة والأمل.

أخبرني سلمان قبل نحو شهر أن عليه أن يجري بعض الفحوصات الطبية، فأخبرته أن علينا أن ننتبه إلى صحتنا. ضحك وأجاب: لا تخف، ينتظرنا كم هائل من الأعمال ولن نرحل قبل إنجازها.

عزيزي سلمان الغالي، استمرّ في عملك هناك في الأعلى، ونحن نستمر فيه هنا في الأسفل. ولنا موعد ولقاء وضحك وعناق. ■

فلسطين (ليس المقصود الإبادة، بل الفصل بين السكان والأرض)، يدور حول ما إذا كان منهجياً أو عفويًا. يخبرنا سلمان أن ضحايا التهجير، كما هي في الحالة الماثلة أمامنا، لا يمكنهم الإجابة عن مثل هذه التساؤلات، فشهادات الناجين تستند إلى مئات الأحداث المحلية العينية، لكنها لا تمدّنا بصورة شاملة لما جرى. يتساءل سلمان نفسه عما إذا كانت هذه الأعمال منسّقة ونجّمت عن أوامر صادرة عن المستويات العليا أم لا، لكنه لا يصل إلى نتيجة واضحة، كما أنه يوضح بأن بلبلّة كبيرة سادت في حينه بين الضباط والجنود اليهود أنفسهم. كما يدّعي المؤرخون أن بن - غوريون نفسه اعترف بصدمته في إثر اطلاعه على الأعمال التي اقترفها الجيش، فهل كان بن - غوريون صادقاً؟ يؤكد سلمان مرة تلو الأخرى أن الإجابة عن هذا التساؤل موجودة في ثنايا وثائق وشهادات الذين اقترفوا هذه الأعمال، وليس في أدب الضحايا.

أدى سلمان ناطور، اعتماداً على الذاكرة، دور المرشد الدليل، وسعى لمنحنا ملامح تصوّر سياسي يهودي - عربي. أتذكره في أحد اللقاءات وهو يتوجه إلى أشخاص يهود قائلًا: هل أتيتم إلى الشرق الأوسط للإقامة الدائمة، أم للإقامة الموقّعة؟ أدعوكم إلى الإقامة الدائمة فيه؛ أن تتعلموا لغة المنطقة، والانخراط في العالم العربي، وإحياء التراث اليهودي - الإسلامي. أثبتوا. كونوا سكاناً دائمين لا موقّتين. بهذه العبارات كان يتوجه إليهم، ويعرض أمامهم التبعات السياسية والثقافية للخيار اليهودي - العربي.

إن التموضع السياسي لسلمان مملوء بالتناقضات. لقد كان فلسطينياً وحيداً في مجتمع درزي يخدم أبناؤه في الجيش الإسرائيلي، بل يشغلون مراتب عليا فيه.